

خواطر في الزواج والسعادة الزوجية

قلم مترقج

الهناء الزوجي ، والسعادة البيئية ، وعوامل الحب المتبادل بين الزوجين ، والتفاهم والانسجام اللذان يجب أن يسودا علاقتهما ، والأسباب التي تؤدي إلى إيجاد البيت الناح السعيد ، كل هذه أمور اعتبارية ليس لها قواعد مقررة يرجع إليها ولا مقاييس ثابتة تقاس بها ، وإنما المرجع فيها إلى التدبير وصدق النظر إلى مختلف الحالات .

وما دنا في مصر لم نعرف بعد معاهد التربية الزوجية التي انتشرت في أوروبا وأمريكا وهي المعاهد التي تتولى إعداد شباب الجنسین لحياة الزواج ، فليس أمامنا سوى الاختبارات والتجارب نعتمد عليها في إسداء النصيح للناطب والمخطوبة وإرشاد الزوج والزوجة إلى طريق السعادة في الحياة .

ولقد هالتي كثرة حوادث الإفلاس في الزوجية بمصر ، وهالتي ما عانت آلاف وآلاف من الأمر بسبب هذا الإفلاس ، وأكتب هنا كلمة الإفلاس وأرمي إلى معناها اللفظي ، لأن الزواج في اعتقادي شركة ، شركة اجتماعية وثقافية ومالية ، وكثيرا ما يفلس كما تفلس الشركات التجارية ، ولكنه عند ما يفلس يكون أشد خطرا وأبلغ أثرا . فالزواج عند ما يغل بالطلاق ، لا تتحل وحدة اقتصادية فقط ، وإنما تتحل وحدة اجتماعية ، وينهار بيت عامر يضم أولادا يقتنون فيعيشون بعد هذا الانهيار بلا أم أو بلا أب أو بلا أبوين ، ومصير هؤلاء الأولاد يغلب عليه سوء .

صحيح إن السعادة ليس لها قواعد توضع أو برامج تقرر ، لأن ما يصلح لهذه الحالة قد لا يصلح لغيرها وما يفيد هنا قد لا يفيد هناك ، ولكن من التجارب العملية والملاحظات ما يمكن اعتباره مبادئ صحيحة صالحة لأن تطبق على كل حالة وفي كل بيت .

من هذه التجارب والملاحظات أن الزوج الذي نشأ على تربية خاصة وشب في بيت سعد أبواه فيه من قبل بالحياة الزوجية وأخذ عنهم أسلوبهما في المعيشة وفهم منهما معنى الأسرة هذا الزوج يسعد غالبا في زواجه ، ذلك لأن أسلوب الحياة الذي تدرج عليه في أيام الطفولة والمراهقة يظل ملازما له في أيام الشباب ويمتد معه حتى يبلغ الشيخوخة . فالطفل المدلل هو الشاب المدلل وهو الشيخ المدلل ، ونحن تقدم على الزواج إما مثقلين بعادات وأفكار سيئة تنتهي بنا إلى الشقاء ، وإما متحليين بعادات وأفكار حسنة تهني لنا أسباب السعادة .

ولست أتحدث عما يجب أن يكون عليه الشاب أو الفتاة قبل الزواج لكى ينعم بالحياة الزوجية ، فجمال التحدث عن هذا يتسع بل لا يقف عند حد ، وإنما ألخص رأيي في عبارة واحدة ، وهى أن خير ما يبيى لسعادة الزوجين أن يكون كل منهما قد عاش في بيت شمل الحب والتعاون فيه أبويه .

ولى رأى أكاد أجزم بصحته ، ولعله ثمرة الاختبار الطويل ، وهو على غرابته صحيح لا غبار عليه ، ذلك أنى أعتقد — على عكس ما يعتقدوه الكثيرون — أن الرجل في مصر هو المدلل لا المرأة .

لقد ألفنا أن نعزو الدلال إلى الفتاة . ولكن الحقيقة الواقعة هى أن مجتمعنا المعصر يدلل الشاب الى حد بعيد ولا يكاد يدلل الفتاة أبدا . وأرجو أن يكون مفهوما أننى أقصد التدليل العائلى لا ذلك التدليل الذى تلقاه الفتاة من بعض المعجبين بها ، ذلك بأننا نؤثر الطفل على الطفلة فنفرح بمولده بينما نفتم لمولدها ، وبأننا نؤثره بالطيبات دونها بدعوى أنه الصبي الذى سيصير رجلا يفتح البيت ويكون رب العائلة في المستقبل ، أما البنت فلا نمحنها إلا مركزا ثانويا بجانب أخيها سواء أكان أكبر منها أم أصغر .

وهذا الوضع يجعل الصبي ينشأ على أسلوب معين في الحياة لا يتغير ، أسلوب يشعره بأنه هو المفضل وبأنه هو الذى تسمع كلمته وتستجاب رغباته ، وبأنه هو الذى لا يعارض فيما يفعل ويقول ، وهذا التدليل اعتبره أسوأ إعداد للحياة الزوجية ، لأن الولد عند ما يكبر ويتزوج لا يتعاون مع زوجته ولا يميل الى التوفيق بين ميولها وميوله ، بل يعمد الى السيطرة والتسلط اللذين ألفهما صغيرا ، ومن هنا يأتى الخلاف ثم النفور ثم الشقاق .

وأرى أيضا أن المرأة تنظر الى الزواج نظرة أوسع وأحكم وأعم وأشمل من نظرة الرجل ، فهى حين تترقب ، تنصرف بكل نشاطها العاطفى والذهنى الى الحياة الزوجية ، عالمة أن زواجها زواج الحياة كلها ، ومعنى الحياة عندها هو إنشاء الأسرة وتربية الأولاد .

أما الرجل فتفكيره في الزواج تفكير ... تفكير ... جنسى ... أكثر مما هو تفكير اجتماعى . وعلة ذلك أنه يحد منصرفا آخر لنشاطه العاطفى والذهنى ، فهو ينشد النجاح الاجتماعى أو الاقتصادى أو الفنى أو المهنى ، أما المرأة المتزوجة أو الفتاة التى تنوى الزواج فلا تنشدها النجاح إلا في البيت ، أى في حياة الأسرة وتربية الأولاد . ومن هاتين الناحيتين ، ناحية أن الزوج نشأ على الدلال أكثر من الزوجة ، وناحية أن الزوجة تنظر الى البيت كونه مهمتها في الحياة ، من هاتين الناحيتين يجب أن نعلم بأن فضل الهناء والسعادة والوفاق في الحياة الزوجية يعود إلى المرأة أكثر مما يعود إلى الرجل .

ومن هنا تأتي تلك الظاهرة التي كثيرا ما يتأفف منها الشبان قبل الزواج حين تطلب الفتاة المخطوبة مهرا عاليا وأنانا فائرا ومسكنا ممتازا . نعم إن هناك إسرافا في هذه المطالب والاشتراطات ، ولكن هذا الإسراف الذي نحسبه رذيلة إنما هو في الحقيقة مبالغة منها في تصور الحياة الزوجية وإدراك جلالها ، لأن الفتاة وهي تكبر من شأن هذه الحياة وتغالى في تصور قيمة السعادة البيئية ووجوب ثباتها وتوطدها ، تبالع في هذه الفضيلة حتى نحسبها رذيلة الإسراف .

ونحن الرجال نعتقد أننا مظلومون مع زوجاتنا . والحقيقة أن زوجاتنا ظالمات مظلومات .

من ظالمات لأنهن يطلبن منا نحن الرجال أن نترل إلى مستواهن الثقافي ، فتقضى معهن الوقت في البيوت ونصادقهن ونزاملهن ولا تترك البيت إلى القهوة أو النادي . هن في هذا ظالمات ، إذ كيف تكون المزاملة أو المحادثة أو تقليب الآراء مع قصورهن الثقافي ومع كل هذا التفاوت في المعلومات والاختبارات الدنيوية والمهنية الموجود بين الرجل والمرأة في مجتمعنا المصري .

ولكن زوجاتنا في الوقت نفسه مظلومات . فليس الذنب ذنبهن إذا كان الآباء قد ضنوا عليهن بالتربية والتعليم اللذين أسبقوهما على أبنائهم الذكور .

ليس العيب عيب زوجاتنا إذا هن بقين ضعيفات في ثقافتهن بحيث لا يستطعن مجاراتنا في أحاديثنا ومناقشاتنا ، إنما العيب عيب الآباء الذين قصرُوا في حقهن ، وعيب الأزواج الذين لا يريدون حل مشقة تثقيفهن وتزويدهن بالمعلومات العامة بعد الزواج .

وبعد فنحن إذا تأملنا مجتمعنا المصري على ما فيه من ميزات وعيوب ، استطعنا أن نعين ونحدد معالم السعادة الزوجية وعواملها والوسائل الموصلة إليها .

وأول نصيحة أسديها للراغبين في الزواج هي حسن الاختيار . حسن الاختيار بحيث لا تتفاوت السنان بين الزوجين تفاوتاً كبيراً ، فكل طور من أطوار العمر له مزاج خاص يبدو في الجلد واللحم ، بل يبدو حتى في النظر إلى الطعام والشراب ، وبعد أن يتحقق الوفاق بين زوجين قطعت السن ما كان يجب أن يكون بينهما من اشتراك في العواطف والميول والآراء .

حسن الاختيار بحيث يختار الشاب خطيبته من طبقة اجتماعية مماثلة للطبقة التي نشأ فيها حتى لا تكون عائلته أغنى كثيراً أو أفقر كثيراً من عائلتها ، وبحيث يختارها من نوع البيئة التي يعيش فيها فلا يكون هو نفسه ريفياً محافظاً بينما تكون هي قد نشأت متحررة في مدينة عصرية ، فإن الخلاف في هذه الحالات أكثر وقوعاً من الخلاف بين زوجين قد تفاوتوا

في السن مع توحيد البيئة الاجتماعية ، وهذا التوحيد في البيئة الاجتماعية هو الذي يؤدي نقصه بين الزوجين إلى النفور والشقاق ، وأكثر ما يتجلى ذلك عندما يتزوج المصري بأجنبية لم تألف عيشة هذه البلاد وأوضاعها وتقاليدها وطباع أهلها .

فهو إما أن يكرهها على ما لا تحب فتثور ، وإما أن يحاول تعويدها ما لم تنشأ عليه فتألم ، وإما أن يقطع صلتها بأهلها ومسقط رأسه وفي هذا عسر لا يطاق .

وخلاصة ما أقوله في اختيار الزوجة أن نختارها بعقولنا بقدر ما نختارها بعواطفنا وقلوبنا .

ولعل من أهم العوامل في اعتقادي لتوطيد الحياة الزوجية أن تطال مدة التعارف بين أَسْرَقِ الخطيبين حتى تعرف التفاصيل والدقائق الخفية التي ربما يؤدي ظهورها بعد الزواج إلى شقاق أو طلاق . أما الزواج السريع الذي يتم بعد أول نظرة وبعد أيام من تعارف العائلتين فليس بالزواج الأمثل الذي يضمن مستقبله ، وإنما يحتاج الزواج إلى دراسة الأحوال الاجتماعية بين العائلتين حتى يستقر على المكان المطمئن الذي سوف يعيش عليه مدى الحياة .

وبعد أن يتم الزواج يصبح من أول واجبات الزوج أن يساعد زوجته على أن ترتفع إلى مستواه الثقافي ، وعليه أن يبدأ ذلك من أول يوم بأن يحرضها ويحثها على قراءة الكتب والصحف والمجلات ، وأن يناقشها في كل ذلك ويفسر لها و يماونها على فهمه واستيعابه ، حتى تستير الزوجة وتصبح الثقافة التي لا تنفك عن ممارستها عادة ملازمة لها ، وأنا أؤكد للزوج أنه إذا فعل ذلك وتابرع عليه ، فإنه لاشك واجد بعد قليل أن زوجته ستكون زميلته ومحدثته ومؤنسته ، ينعم بمرافقتها في البيت وخارج البيت ولا يهرب منها إلى القهوة أو النادي .

وما دام مجتمعنا يحمل تعليم الفتاة بقدر ما يعنى بتعليم الشاب ، فلا بد من أن يقوم الزوج بهذه المهمة ، وهي ليست بالمهمة الشاقة ، لأن رابطة الحب التي جمعت بينهما ستزداد توثقا عندما يستير الذهن ويزداد جمال الوجه بازدياد جمال العقل والذوق .

وأنصح للزوجين ألا ينحدرا إلى التبذل في الحديث أو المناقشات أو العادات أو الملابس ، بل يحسن أن يتكلف كل منهما بعض التحفظ في كل ذلك ، فإن المزاح الذي يؤدي إلى الكلمة الجافية والإيماءة الفليضة ، وكذلك إهمال الزوجة لملابسها وزينتها ، وتناول الطعام على مائدة مشوشة في غير كياسة ، كل ذلك قد يستهان به في أوله ، ولكنه يتهنى دائما إلى إبراز العيوب ثم إلى فتور الحب ثم إلى خلق الملل والنفور .

اذكري أيتها الزوجة أن زوجك يرى السيدات في الشارع وفي الزيارات وفي الولائم ، وأنه يراهن دائما في أحسن زينتهن ، فلا يجوز أن يراك متفوشة الشعر متبذلة في ثياب المطبخ كأنك مر مطونة أو غسالة .

وليس من الكياسة ولا من حسن السياسة أن تتركى نفسك مهملة الزينة والرشاقة والمندام حتى يعمد زوجك إلى المقارنة وأنت في هذه الحالة بينك وبين زائرتك المتجملة المتروقة البادية في أحسن حالاتها ، وأنت أدري بما يعقب هذه المقارنة من حسرة يحسها الزوج وما يعقبها أيضا من إحساسات فاجرة هي في اعتقادي بداية الانفصال الروحي الذي يؤدي إلى انفصام عمرى الحياة الزوجية .

إنك تقولين : ما عليش إحنا واخدين على بعض ، ولكن حاذرى فإن لزوجك عينين تريان غيرك ، ويا ويل مستقبلك إذا امتعضت عيناه من رؤيتك كل يوم بقميصك المشمر الكمين ، وشعرك المنفوش وشبك الحاقى أو قبقابك الذى يزعج أذنيه .

ويجب أن يذكر الزوجان أن الإنسان كائن روى فيجب ألا يجرح أحدهما كرامة الآخر ، ويعلم كل منهما أن الكلمة العوراء أو الإشارة الفظة لن تنفروا ولن تنسى وإنما هي كرض الجحدى تزول حماء ولكن تظل آثاره على الوجه تذكر به في كل حين .

لست أدعو إلى أن يتعامل الزوجان كما لو كانا شخصين كل منهما غريب عن الآخر ، أى فى تكلف وتحفظ واحترام ، ولكن قليلا من الاحترام تطلبا به الكياسة ، والكياسة هنا هي اللطف والرفقة والاحتشام .

والأغلب أنه عند ما يتزوج الشابان حوالى من العشرين أن تكون عاداتهما فى دور البداية لم تستقر بعد ، ولكنهما إذا تزوجا فى سن الثلاثين أو بعدها ، تكون عاداتهما قد تأصلت واستقرت فلا يبقى سبيل لأحدهما إلى تغيير طباع الآخر ، والزوجة التى تطلب ذلك فى هذه الحالة إنما تطلب المستحيل ، ولكن عليها عندئذ أن تحاول التهذيب والتوفيق بالإقناع عن طريق الإيحاء ، وهنا أقدر وأؤكد أن الإيحاء هو خير ما تتبعه الزوجة من الخطط الدبلوماسية مع زوجها ، فإن الجدال ولو كان حوارا بريئا لا يستسيغه ولا يقتنع به زوج مطلقا ، بل إن الزوج الذى يهزم فى جدال بعد أن تقام عليه الحججة الدامغة فيه يبقى متعنتا كارها وإن استسلم وخضع .

إنما يقتنع الزوج بالإيحاء وحسن الحيلة ولطف الوسيلة ، أما الأمر الجاف أو التكرار الملل أو الإلحاح المتواصل فقد يجر إلى ما نسميه "مناقرة" لا تطاق ، وبعض الأزواج من الجنسين يألفون هذا اللون من المعاشة حتى يجعلوها فنا يبدعون فيه والقيام بالله .

قلت إن الزوج الذى تجاوز الثلاثين يشق عليه أن يبدل عاداته ، وقد تكون له هواية تشغل فراغه وتمسرى عنه همومه ، فمن الحسن ألا تعارض الزوجة زوجها فى تعلقه بهوايته سواء أكانت هذه الهواية دراسة معينة تحتاج إلى شراء كتب ، أو لعبة رياضية تتطلب بعض نفقات ، أو صناعة يدوية أو غير ذلك ، لأن الزوج بهذه الهواية يجد المتفرج أو المتنفس الذى كثيرا ما يقيه أو يصرفه عن غواية سيئة .

ولئذ كر كل زوجة أن يلتزم بها أن تتوافر فيه جميع المفريات التى تنرى بالبقاء فيه ، أى يجب أن يحتوى على المقاعد المريحة والسرير الوثير وجهاز الراديو والجرائد والمجلات والصور الفنية ، كل هذا بقدر الطاقة المالية الممكنة ، ولا أقول غرفة الجلوس النظيفة فقط ، بل المطبخ النظيف الذى تزدان نافذته بصريات الزرع ويكسو زجاجة ستار لطيف رخيص ، وليس هذا مما يكلف كثيرا ، ولكنه يثر كثيرا فى تجميل البيت وتحبيبه إلى قلب الزوج عند ما تقبل عليه الزوجة فى شىء من حسن الذوق .

ولدينا نحن المصريين ظروف وملابسات تختص ببيتنا وتؤدى أحيانا إلى عواقب وخيمة . من ذلك اشتراك الحماة مع الزوجين فى عيشة واحدة . ونصيحته إذا لم تكن الضرورة القصوى هى السبب لهذا الاشتراك فإنه يجب ألا يكون ، ولكن ليس معنى هذا أن تكون الحماة مكروهة أو أن ينقص حبها واحترامها ، وإنما معناه أن تدخلها الدائم فى بيت بنتها أو ابنها قد يفسد الأمر على الزوجين .

ولنتق جميعا أن احترام كل من الزوجين لعائلة الآخر أمر واجب لأنه أحد العوامل النافعة فى دعم الحياة الزوجية ، فليحترم كل منا أسرة الآخر مع احتفاظه باستقلاله عنها .

وفى النهاية أقول : إن أفضل الزوجين هو الذى يبدأ الثانى بالمصالحة بعد الخصام ، لأن المصالح هو المبقى على الآخر ، وهو المصمم الذى يبنى ، وهو الذى يتبع الخطط الإيجابية المنتجة . أما الذى يسكن إلى الخصام ويبرره بدعوى أنه لم يكن السبب فيه فهو المدلل السمج الذى يتبع الخطط السلبية الهدامة لكل معادة زوجية . وكل هذا الذى ذكرته ينطبق على الزوج والزوجة سواء بسواء . هذا بعض ما أثمرته عندي خبرة عشرين سنة أو أكثر فى الزواج ، ونحن لحسن الحظ ، أو لسوء الحظ لا أدري ، مازلنا بعيدين عن الزواج العلمى أى الزواج القائم على أصول علمية ، الذى تقاس لأجله الكفايات والمواهب والاحتمالات بنية تحقيق السعادة وإنتاج خير الأولاد ، ولكنتا مع هذا قد ارتقينا عن ذلك الطور الذى كان آباؤنا يتزوجون فيه باختيار آباءهم ، ثم تكون الحياة كيف اتفق ، وأرجو وقد أتممت حديثي ألا أكون قد أغضبت أحدا منكم والسلام عليكم ورحمة الله ٤